الباب الرابع

القدماء والمحدثون

١ — تعـــريف

"كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالإضافة إلى من كان قبـله من الشعراء . وكان أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤هـ) يقول : لقد أحسن هـذا المولّد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا بروايته؛ يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق ... وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للمتقدّمين"[١] .

وقد قسموا الشعراء إلى : جاهلى، ومخضرم، و إسلامى، ومولّد. وقسموهم أقساما غير ذلك .

ولكن التسمية التى آستقرت أخيرا ، هى قسمتهم إلى : قدماء ، و إلى محدثين . وأصبح هذا التقسيم تتناوله الأجيال بعضها من بعض ، بمدلوله العلمى وليس بمدلوله اللغوى .

وتراهم يطلقون القدماء على شعراء العربية ابتداءً من الجاهليين منهم، حتى آبن هرمة الذى كانوا يعـدونه آخر من يُستشهد بشعره[٢] ويقولون عنـه، وعن آبن ميادة، ورؤبة، والحكم الخضرى : إنهم ساقـة الشعراء[٣] .

أما المحدثون فمن بشار إلى من يليه . ولا يعد آبن المعتز فيمن يأتى بهم فى كتابه البديع من المحدثين أحدا قبل بشار . ويسمونه أبا المحدثين ، وتختلف آراؤهم فيه .

٢ — القـــدماء

كان شعر الجاهليين تصويرا صحيحا لحياة البادية التى يحبونها ، وتعبيرا صادقا عما يحسون .

(١) نهج القصيدة : كانوا يفتتحون القصيدة بالنسيب، فيذكرون "الرحيل والانتقال، وتوقع البين والإشفاق منه ، وصفة الطلول والخيول ، والتشوّق بحنين الإبل ، ولمع البروق ، ومرّ النسيم، وذكر المياه التى يلتقون عليها ، والرياض التى يحلون بها ، من خُزامَى ، وأُقْحُوان ، وبَهـار،

(١) العمـدة : ج ١ ص ٥٦ (٢) العمـدة : ج ١ ص ٨٤ (٣) الوساطة : ص ٤٩

وحَنْوة ، وظَيّان ، وعَرار ، وما أشبهها من زهر البرية ، الذى تعرفه العرب ، وتنبته الصحارى والجبال ؛ وما يلوح لهم من النيران فى الناحية التى بها أحبابهم . ولا يعْدُون النساء إذا يغزلوا أو نسبوا[1] " .

وهذا النمط من النسيب قد ظل ملازما شعر البادية إلى زمن متأخر ، حتى ليصوّر لنا به آبن رشيق غزل البادية فى أيامه .

فاذا فرغ الشاعر من غزله قصد إلى الغاية التى كان يريدها بالقصيدة ، من فخر ، أو مدح أو هجاء .

وكان من عادتهم فى المدح " أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز ، وما أنضى من الركائب ، وما تجشم من هول الليل وسهره ، وهول النهار وهجيره ، وقلة الماء وغؤوره ، ثم يخرج الى مدح المقصود ... وكانت دوابهم الإبل ، لكثرتها وعدم غيرها ، ولصبرها على التعب ، وقلة الماء والعلف ؛ فلهذا أيضا خصوها بالذكر دون غيرها . ولم يكن أحدهم يرضى بالكذب ، فيصف ما ليس عنده كما يفعل المحدثون[2] " .

" أما المراثى فكان من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فيها بالملوك الأعزة ، والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة فى قلل الجبال ، والأسود الخادرة فى الغياض ، وحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات ، لبأسها وطول أعمارها . وذلك فى أشعارهم كثير لا يكاد يخلو منه شعر[3] " .

(ب) صُنّاع الشعر : ولقد كانوا ينقسمون ، كما آنقسم المحدثون من بعدهم ، إلى جماعة يطلبون المعنى ، وجماعة أخرى تجوّد اللفظ ، وترصد له الوقت الطويل . ويمكنك أن تسمى هذه الطائفة الأخيرة : طائفة صنّاع الشعر .

فكان آمرؤ القيس من أصحاب المعانى . يقول آبن رشيق ... " وكان آمرؤ القيس مقلا ، كثير المعانى والتصرف ، لا يصح له إلا نيف وعشرون شعرا ، بين طويل وقطعة ، ولا يكاد يفلت شاعر من حبائله[4] " .

وكان زهير ينظر فى شعره ، فينقى الردىء ويبقى الجيد ، وتسمى قصائده بالحوليات وقد تبع فى ذلك أستاذين : هما أوس بن حَجَر ، وطفيل الغَنَوِىّ[5] . وتبع زهيرا فى ذلك تلميذه الحطيئة . وكان

(١) العمدة : ج ١ ص ١٥٠ (٢) العمدة : ج ١ ص ١٥١ (٣) العمدة ج ٢ ص ١٢٠
(٤) العمدة ج ١ ص ٦٧ (٥) العمدة ج ١ ص ١٣٢

يقول " خير الشعر الحولى المحكك " ويلاحظ آبن رشيق أنه كان يتبع فى ذلك زهيرا وأوسا[١]. فهذه المدرسة الأخيرة يمكن أن يطلق عليها : مدرسة الصنعة .

ولكن هذه الصنعة لم تكن كصناعة المحدثين " فالعرب لا تنظر فى أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون[٢] " وإنما كانت تطلب " شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم قصب السبق لمن ، وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد أبياته ..... ولا تحفل بالابداع والاستعارة ، إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض . وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ، ويتفق لها فى البيت بعد البيت ، على غير تعمد وقصد[٣] " .

وسار الناس على ذلك ، وهذا الذى صورته من الشعر ، إنما هو شعر البداة منهم ؛ أما شعر من كان يسكن أطراف الجزيرة ، ويخالط أهل الحضر ، فكان يتأثر بمزاجهم ، فيصف الخمر والنساء ، وما يرى من ألوان الحضارة ، وصفا لا يسلم ، مع لينه ، من بداوة .

٣ — الانتقال

(ا) عصر الفتح الأول والخلافة الشرعية : حتى إذا جاء الاسلام وقلب الأوضاع الجاهلية ، والمثل الاجتماعية ومس أصول كل شىء فى حياة العرب ، وأثر فى عقولهم وطباعهم ، أخذ الشعر يستجيب لذلك بعض الاستجابة . ولما آتسعت الفتوحات ، وآنبسط نفوذ العرب على أمم سبقتهم إلى حضارات عريقة وترف ، وأساليب من العيش والحكم ، لم يكن للعرب سابق عهد بها ، اهتزت لذلك النفس العربية ، والشعر أبدا نجىّ النفس ومرآتها ، فظهر أثر ذلك فيه . ولكن هذا العصر ، عصر آستقرار النفوذ العربى فى عهد الخلفاء الأول ، كان عهد كفاح من نوع ذلك الكفاح العملى ، الذى يهون الى جانبه القول ، كان عصر آختزان النفس للأحداث ، يليه عصر القول والفيض .

(ب) تحول الخلافة الى ملك وأثر ذلك فى الشعر : فما كاد الخليفة الثالث يقتل ، ويدب الخلاف وتثور الفتن ، حتى أخذ الناس ينظرون فى أعماق نفوسهم ، وأخذت تلك الآمال الجسام التى قامت على وحدة الأمة العربية تتضعضع ، وأطلقت العصبية من عقالها ، فغلت نفوس

(١) العمدة : ج ١ ص ١٣٤ (٢) العمدة : ج ١ ص ٨٣ (٣) الوساطة : ص ٣٧

الناس بألوان مختلفة من الإحساسات، وضروب شتى من العواطف . ثم حلت بين هذا كله الملكية محل الخلافة، وتزلزلت تلك الهيبة الدينيـة التى كانت تحوط نظام الحكم — وذلك إن كان قـد بدأ أيام عثمان ، فلم يظهر ظهورا واضحا إلا بعد قيام ملك معاوية . وقام هذا الملك على تلك الدعائم التى يقوم عليها أبدا كل مُلْك؛ وأحس كثير من العـرب بالخيبة، فعادوا إلى بواديهم كما يلجأ الزاهد إلى صومعته . ويستطيع الانسان أن يدرك مقدار اليأس الذى آستولى على أولئك، بعد أن رأوا ذلك المثل الأعلى الذى كافحوا فى سبيل إقامته بأنفسهم وأموالهم ودمائهم، يهوى كما يهوى الطود الشامخ، بين صليل السيوف، ووهج الحقد، وتكالب الطمع . عاد قوم إلى باديتهم، وحبس آخرون فى حواضرهم، وقد خُلِّىَ بينهم وبين ذلك السبيل من الحرية ، الذى لا يمس الدولة فى شئ، وإنما يريحها منهم ، وقدملئت أيديهم مالا . فشغلوا بين الفراغ والحِدَة، والطموح والعجز، بألوان من اللهو، وصنوف من القول ترضى هذه العواطف جميعا . فازدهر لذلك الشعر السياسى والغزل[1] .

* * *

(ج) التجديد والخصومة فيه خطا بذلك الشعر العـربى على أيدى العرب أنفسهم خطوة واسعة، مطاوعا الحياة التى تحوطه، شأن كل كائن صالح للحياة . ولكن بداوة العرب لم تكن قد فارقتهم، ولم يكن الزمن قد أتاح لهم من نفسه ما يكفى لاستقرار الحضارة ، ورسـوخ مظاهرها فى النفس بل إن ما منيت به أمة كهذه الأمة العظيمة ، كان يدعو فى حالة الحرج النفسى، إلى شئ من تقـديس المـاضى ، وذكره بالحنين إليـه، وتمجيد مُثُله . فلزم ذلك صياغة القصيدة العربية، حتى لقد بقيت صورتها، وبنيتها، وقافيتها كما كانت فى الجاهلية . فكانت، على ما هى عليه، صورة صادقة للنفس العربية فى ذلك العهد، بما فيها من آضطراب بين الحنـين إلى المـاضى ، واندفاع إلى تصوير ما يعتلج فيها، مما أثارته الحياة الجـديدة بمـا فيها من خير وشر . ففيها من أثر المحافظـة : الصيغة والنمط ، ومن أثر الحضارة النوع الجديد، والمـادة الحادثة شيئا .

وإنا لنسمع فى حكم نقاد العصر الأموى ما يصور ذلك تماما . "سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال : لو أدرك يوما واحدا من الجاهلية ما فضلت عليه أحدا[2]". وأبو عمرو قد شهد عهدا من حكم الأمويين، شهد الحجاج ومن بعده ، ومات فى أيام المنصور العباسى سـنة ١٥٤ هـ . فهذا الرجل، مع أنه كان متأخرا، إلا أنه كان شديد الحنين إلى الجاهلية .

(١) انظر فى هذا كتاب حديث الأربعاء للدكتور طه حسين .
(٢) المثل السائر : ص ٤٨٩ طبع بولاق .

فكان فيما بينه وبين نفسه يرضى شعر الأخطل ، وهو أيضا فيما بينه وبين نفسه يفضل شعر الجاهليين، ويود لو كان الأخطل منهم . وقد يظن أن حاجته إلى الشاهد كانت هى الأخرى دافعا إلى هذا التقدير الغريب، ولكن شعر الأخطل مما يستشهد به .

ولكن الحياة لم تلبث أن استقرت، وضاعت حدّة الصدمة الأولى، فأخذ الناس يرون فى الشعر الجديد متنفسا وتصويرا لما يجرى فى قلوبهم. فأخذ تقدير الشعر الحديث يحل من نفوس الناس محلا لائقا به. وإنا لنجد عيسى بن عمر الثقفى النحوى ذلك الناقد العميق (توفى سنة ١٤٩، وشهد الدولة الأموية) يفضل الأخطل على الأعشى.(١) وهنالك قصة أخرى ترى كيف أخذ الناس يستسيغون الشعر الاسلامى؛ ذكرت فى مقدّمة الجمهرة عن مجلس من مجالس عبد الملك بن مروان ، حضره أعرابى، فقال كلاما طويلا فى لهجات العرب، يدل على علم بها، ثم سأله عبدالملك عن أمدح بيت قالته العرب، وعن أغزل بيت الخ الخ. فكانت هذه الأبيات جميعا لجرير. والقصة بادية الصنع، صنعها عالم أغلب ما يكون فى أوائل العصر العباسى ، ولكنها تعطينا فكرة عن تقدير المسلمين يومئذ للشعر الإسلامى، وعن نزول تلك المُثُل الجاهلية عن مستواها القديم فى تلك الأيام. والحق أن الناس كانوا يحبون الشعر الجديد ، لأنه يصوّر لهم نفوسهم تصويرا صحيحا. وهم فى هذا يستجيبون لمطالب نفسية صحيحة .

وعلى ذلك فالتيار النفسى الذى كان يوجه الشعر العربى يومئذ، كان مستقيم المجرى، طبيعى الأسترسال، مستمرّ التقدّم على الأيام، يكمل ما كان منه قبل الإسلام تكملة، الحلقات لسلسلة التقدّم الطبيعية فى الحياة . أما ظاهرة غلبة التقاليد الشعرية الجاهلية ، التى أطال عنها الحديث نيكولسن، فليست إلا طبقة سطحية تعلو ذلك التيار النفسى العميق . فما كان لأمة فى أىّ عصر من عصور حياتها أن تعيش من غير شعر يصوّر ذات نفسها .

وقد نشأت هذه المعارضة السطحية للشعر الجديد بعاملين : أولهما الحنين إلى الماضى ، كما قدّمت . وثانيهما أن ذلك العصر كان عصر الجمع والتدوين لآثار السلف ، فشغل العلماء خاصة بذلك، شغلا كاد ينسيهم أنفسهم. وكان لإقبال الناس على قراءة القديم، والنظر فيه، واستيضاح معانيه وخصائصه، لإقامة حياتهم على ماضيهم، شأن الخلق فى ذلك جميعا فى كل عصر وفى كل بيئة، ردّ فعل عند المشتغلين به، مظهره ذلك التعصب للقديم عند فئة، والتعصب للحديث عند أخرى،

(١) مقدمة جمهرة أشعار العرب ص ٢٤ طبع بولاق . (٢) ص ٣٦

وآستفحال الخصومة بينهما ، آستفحالا غلبت فيه نوازع العناد ، وحماية الذات والعمل ، غلبة كادت تظهر لنا ذلك العصر عصر جمود فى الشعر العربى ، وما كان كذلك .

فالناس جميعا كانوا يحبون الشعر الحديث ، والعلماء منهم كذلك و إن تعصبوا للقديم . و يبين ذلك رأى أبى عمرو بن العلاء السابق . و إنا لنجد صدى ذلك فيما بعد فى العصر العباسى ، فى قصة آبن الأعرابى وشعر أبى تمام ، وفى قصة أبى رياش القيسى وشعر البحترى وغيرهما (١) .

فالتعصب للقديم فى العصر الأموى لم يكن إلا عند العلماء حين تستغرقهم الفكرة العلمية ، فاذا خلوا إلى أنفسهم فهم محدثون ، يحسون بالشعر الجديد جمالا لا يجدونه فى الشعر الجاهلى .

٤ — المحدثون

(١) شعب جديد ونفوس جديدة : آتسعت رقعة الفتح الاسلامى آتساعا هائلا ، وكان العرب هم السادة الفاتحين ، وكانوا حاملى لواء الدين الجديد ، فكان للنصر وللدين فى أول الأمر هيبة دفعت إلى آستقرار الأمر بادئ بدء فى أيديهم . ولم يمض قليل حتى أخذت العصبية والفرقة تدب دبيبها بينهم ، فأخذت تضعف من هيبتهم وسلطانهم . وكانت دهشة الفتح قد هدأت فى النفوس ، فأخذت الشعوب المفتوحة تتطلع إلى آستعادة السلطان ، وتنبهت فيها المطامع ، وكان اعتماد العرب فى إدارة شئون هذه الأقطار الفسيحة ، على أهلها من الأعاجم أصحاب الخبرة بها . فمكن لهم ذلك شيئا ، وكان الدين الذى حمله العرب إلى الناس ينطوى على هدم سيادة العناصر ، فاتخذه الموالى

(١) الوساطة ص ٥٠ و ٥١ . يقول الجرجانى فى الحديث عمن يتعصب للقدماء على المحدثين ص ٥١ من الوساطة : "ولقد يتفق لأحد هؤلاء غلبة الانصاف على قلبه ، فى الوقت بعد الوقت ، فيخلع رداء العصبية ، و يصغى و يميز ، فيرجع . حدثنى جماعة من أصحاب أبى رياش القيسى ، ولا نعرف فى زماننا راوية تقدمه ، وكان معروفا بالتحامل على هؤلاء ، والغض من أبى تمام والبحترى خاصة ، حتى إن نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة فى وقته لقلة الرغبة فيها : أنه أنشد ذات يوم قول البحترى :

نظرت إلى ظران فقلت ليلى ... هناك وأين ليلى من ظران
ودون مزارها إيجاف شهر ... وسبع للطا يا أو ثمان
ولما عرفت أعراف سلمى ... لحسن وقفت فتن القيان
تصوبت البلاد بنا إليكم ... وغنى بالإياب الحاديان

فقال : أحسن والله . من هذا البدوى المطبوع ؟ فقيل : إنها للوليد بن عبيد . فقال : أعد . فأعيدت . فرجع عن رأيه فيه ، وحض الناس على رواية شعره" .

وأما قصة أبى تمام مع آبن الأعرابى فقد أنشده منشد أبيات أبى تمام فى الروض ، من غير ذكر آسم صاحبها . فأخذته أخذا . فلما قيل له : إنها لأبى تمام . قال : خرق خرق .

سلاحا قويا يهدمون به التسلط السياسى لأصحاب الدين. وكانت هناك الفتن بين العرب، واستعانتهم بالموالى مما جعل لهؤلاء قوة وشأنا .

وكان هناك شيء آخر يجب أن لانساه ... ذلك هو ما طرأ على الأمة الإسلامية من التغير من ناحية الدم . فقد امتزجت طبائع بطبائع، وأمم بأمم ، وتكوّن من هـذا مزاج جديد لطائفة ضخمة من الناس، هم المولّدون الذين كانوا يكوّنون أغلبية الأمة الإسلامية[1] . وهؤلاء بما فطروا عليه، وخلقوا منه، في حاجة إلى شعر يلائم تكوينهم النفسى الغريب عن التكوين العربى الخالص وهـذا الشعر لغته هى العربية ، لغـة الحديث والكتابة والدين . فكان لهذا كله ، أثره فى تجدّد الشـعر العربى، واتساع آفاقه اتساعا جديدا . أو بالأحرى اتجاهه اتجاها جديدا، يغاير ذلك الاتجاه الذى كان يتجهه فى عهد تسلط العرب وقيام ملكهم ، أى إلى ما يقرب من آخر عهد الأمويين . وليس لنا هنا أن نفترض ماذا كان يمكن أن يتجه فيه الشعر العربى لو أن السلطان والغلبة قد استقرا لهم، بعد أن ثبت قبولهم للتطوّر ، وقبول لغتهم لفنين جديدين واسعين ، لا يزالان صورتين خالدتين من صور النفس الانسانية : الغزل الخالص والسياسـة . ولكن إذا كان لنا أن نقيس الأمور بمقدماتها وطلائعها، فان الشعر العربى قد خسر كثيرا .

* * *

(ب) الشعر الأعجمى والصنعة : ابتدأ الشعر الأعجمى ، وأولى بنا أن نسميه كذلك ، بنظم الموالى شعرا فيه روح جديد، فى العصر الأموى. ولم تنفر منه العرب، ولكن لم تلبث الشعوبية أن عملت عملها . فاذا بهذه الغارة تنقلب إلى غارة إيجابيه شعارها الهجوم، وثلب العرب فى شعرهم ومواهبهم . بدأ ذلك بشار بن برد . وبشار ككل الرجال الأفذاذ الذين يفتتحون عصرا جديدا ، والذين تهيئهم الطبيعة بمميزات لولاها لما استطاعوا أن ينهضوا بالحمل فى أوله .

كان بشار فارسىّ الأب ، أبوه من فرس طخارستان ، من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وهبه لامرأة من بنى عقيل، فتزوجته ونُسب إليها ، وولدت منـه بشارا . وكان عابثا ، لا يهاب شيئا ، سائر الشعر، خصب النفس . وكان شعوبيا يميل إلى الفرس ميلا غريزيا واضحا . ولا بدّ من التنويه بأن بشارا قد عاش فى عصر ترجمة ما ترجم أوّل الدولة العباسية من آثار الفرس واليونان . فقد مات سـنة ١٦٧ هـ فى ولاية المهدى . ولست بهذا أحاول أن أرجع شعر بشار إلى أصول من هـذه ، ولكنى أذكرها على سبيل الاستئناس وإلقاء النور على ثقافتـه قدر المستطاع .

(١) راجع ما كتب الأستاذ أحمد أمين عن هذا فى كتابه فجر الإسلام، وضحى الإسلام .

كان هذا الرجل طارئا على العربية، يكتب بها معبرا عن حال غير حال أهلها، فصوّر نفسه فيها. وكان جريئا فى ذلك، ففتح فيها فتحا جديدا. "وقالوا: أوّل من فتق البديع من المحدثين بشار، وآبن هرمة، وآبن ميّادة ساقة العرب، وآخر من يستشهد بشعره. ثم تبعهما كلثوم بن عمرو العتابى، ومنصور النَّمرى، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس. وآتبع هؤلاء حبيب الطائى، والوليد البحترى، وعبد الله بن المعتز[1]".

وقد شبهوا بشارا بآمرئ القيس، لتقدّمه على المولدين وأخذهم عنه. ومن كلامهم: بشار أبو المحدثين[2]. وآمرؤ القيس معروف بأنه صاحب معان، فكأنهم يريدون أن يقولوا إن بشارا كان صاحب معان، وهذا معروف أيضا. ويقول آبن رشيق "بشار كان يصنع المخمسات، والمزدوجات عبثا بالشعر[3]". فتجديد بشار للشعر كان فى نواح ثلاث:

(١) لفظه. (٢) معانيه. (٣) صياغته (وإن كانوا يروون أن آمرأ القيس كان ينظم المخمسات[4]). فالرجل فى هذا متحرر من كل ما كان يقيد سابقيه، وكان يعبر عن حياة جديدة، فيها ترف فى الملبس، وترف فى كل شىء. فلم يكن بد من أن يظهر هذا الترف فى لفظه، ومعانيه، وصياغة شعره.

وإن ما يستوقف النظر هنا، هو مشاركة آبن هرمة العربى لهذا الفارسى، فى فتق البديع فى شعر المحدثين. ولكن، كما قلت: إن هذا العصر كان عصر الترجمة، والآضطراب بين الثقافات الأجنبية. والعرب كانوا على آستعداد، فيما يظهر، لأن يخطوا حيث تقودهم الحياة.

تسلم أبو نواس ومسلم الشعر من بشار، ولهما من جدّة النفس وسعة الأفق ما ليس له، فبنى كل منهما من حيث آنتهى سابقه من ناحية. أخذ أبو نواس ناحية المعنى، وإن لم يبعد بعدا تاما عن الصنعة. يقول آبن رشيق: "إن أبا نواس كان يتفقد شعره، ويعيد فيه نظره، فينفى الدنى ويبقى الجيد[5]". كما يذكره آبن المعتز فى أصحاب البديع وذلك بادٍ فى ديوانه.

أما مسلم فقد أخذ جانب البديع، يطلب الاستعارة ويتحرى الجناس والطباق والمقابلة، تحرى الطالب لها، حتى آتّهم بأنه أول من أفسد الشعر. "كان يبطئ كثيرا فى صنعته ويجيدها، وهو زهير المولدين[6]". ولكنه لم يخرج عن نمط القصيدة العربية.

(١) العمدة: ج ١ ص ٨٥ (٢) العمدة: ج ١ ص ٨٥ (٣) العمدة: ج ١ ص ١٢٠
(٤) العمدة: ج ١ ص ١٢٠ (٥) العمدة: ج ١ ص ١٣٤ (٦) العمدة: ج ١١ ص ٨٥

* * *

أما أبو نواس فكان حاقدا على العرب، شعوبيا، فاتخذ وسيلته للسخرية منهم نهج القصيدة العربية، يضحك منها، ويسخر بها، ويدعو إلى ترك ذلك النهج من الغزل الذى كانت تستفتح به عادة، وهو البكاء على الأطلال، وحبس الركب عليها. قال:

ودارِ نَدامَى عَطَّلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارِسُ (١)

مَساحبُ مَن جَرّ الزقاق على الثرى ... وأضغاثُ ريحانٍ جَنِيٌّ ويابس

حبستُ بها صحبي فجددتُ عهدَهم ... وإنى على أمثالِ تلك لحابس الخ

وقال:

دعِ الأطلال تَسفيها الجَنوبُ ... وتبكى عهد جِدَّتها الخطوبُ

وخلِّ لراكبِ الوجناءِ أرضا ... تُحَثُّ بها النجيبة والنجيب

ولا تأخذْ عن الأعرابِ لهوا ... ولا عيشا فعيشهم جَديب

ذرِ الألبان يشربُها أناس ... رقيق العيش عندهم غريب (٢) الخ

وهى أبيات من أقذع الهجاء. ولا أظنها موجهة إلى القصيدة العربية، قدر ما هى موجهة إلى العرب أنفسهم. فقد كان مضى قبل أبى نواس عهد تغير نمط القصيدة العربية فيه شيئا عند العرب أنفسهم، حين تحضروا وتركوا البداوة. فلم يثر من أجل تغيير النمط أحد. وعندى أن خصومة أبى نواس، أقامت حول القصيدة العربية ضجة صورتها فى غير صورتها. حتى لقد قررت فى ذهن الناس أنها إنما تقوم على هذا الذى ينعاه أبو نواس عليها، وليست تقوم على غيره، مع أن نمط القصيدة العربية كان قد تجدد منذ عهد طويل قبل العباسيين، مسايرة للحياة. ليس معنى هذا أن أبا نواس قد تجرد تماما من القديم، فإن لحمته القديم / وما كانت الثورة فى يوم على القديم سببا فى نبذه كله. فلو تجرد الحاضر من كل قديم ماوجد الحاضر نفسه. وإنما الأمر انتزاع بعض الأساليب التى لاتتلاءم مع الزمن، ولا تجارى الحياة. فأبو نواس كان يمدح كما يمدح القدماء، ويضحك كما يضحك القدماء، ولكنه لم يرض الرحلة، ومخاطبة الأطلال وبكاءها، لأنه ليس فى بغداد التى كان يعيش فيها ما يتصل بالأطلال. فلم يكن بُدٌّ من نزع الأدعاء، والبعد عن تكلف الكذب.

(ج) نهاية الصراع بين شعر العرب وشعر الأعاجم: وكما انتهى النضال الاجتماعى والسياسى بين العرب والأعاجم بأن ذاب العرب فى هذه الأمة الجديدة التى خلقوها، كذلك ذاب

(١) ديوانه: ص ٢٩٥ (٢) نفسه ص ٢٤٤

الشعر العربى فى شعر هذه الأمم الجديدة . ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان القارئون لهذا الشعر قوما ، هم والشعراء يتشابهون فى الدم والمزاج والميل . ولم يبق يتعصب للقديم إلا جماعة العلماء ، الذين كانوا يطلبون الشاهد ثم أصبحت لحاجة . كما يقول ابن رشيق .

وحتى هؤلاء قد خُدِعوا بحملات خصومهم ، فاتجهت أنظارهم ، إلى الشعر الجاهلى أو ما يقرب منه منهاجا ، ونسوا ما سواه ، فكانت حملات خصومهم عليهم أشد لذعا و إيلاما . فحملة أبى نواس لم تكن من ناحيتها الفنية موجهة إلى المثل الأعلى للقصيدة الإسلامية ، بقدر ما كانت موجَّهة الى المثل الأعلى للقصيدة الجاهلية .

التجديد فى المادة والصورة : جد على يد المحدثين فى الشعر العربى فن ليته ما كان . ذلك هو فن الغزل بالمذكر وهو يمثل ناحية من النواحى الخلقية لهؤلاء الذين كانوا ينطقون بلسان ذلك العصر ، كما يصور ناحية من نفس الجمهور الذى كان يقبل شعرهم . وجد على يد أبى العتاهية فن الشعر المقول فى الزهد .

كذلك تناول التجديد مادة الشعر فى ذلك العصر ، فكان يأخذ صوره من الحياة وما فيها . يقول الجرجانى فى وساطته[1] "فلما ضرب الإسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادى إلى القرى ، وفشا التأدب والتظرف ، اتخذ الناس من الكلام ألينه وأسهله ... ... وتجاوزوا الحد فى طلب التسهيل ، حتى تسمَّحوا ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الركاكة والعُجْمة ، وأعانهم على ذلك لين الحضارة ، وسهولة طباع الأخلاق . فانتقلت العادة ، وتغير الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، وأخذوا بشعرهم هذا المثال ، وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من من الألفاظ" .

فاستحال الغزل عما ذكرنا عند القدماء إلى "ذكر الصدود والهجران ، والواشين والرقباء ، ومَنَعة الحرس والأبواب ، وفى ذكر الشراب والنَّدامَى ، والورود والنسرين والنيلوفر ، وما شاكل ذلك من النواوير البلدية ، والرياحين البستانية ، وفى تشبيه التفاح ، والتحية به ، ودس الكتب وما شاكل ذلك"[2] .

وهكذا فى كل فن تدخلت الحياة الغالبة ، فجدّدت مادة الشعر وإن لم تجدّد صورته العامة . أما اللفظ فقد صفى ونقى وجدّد أحيانا . فاستعمل فى الشعر اللفظ المولد ، واللفظ الفارسى ، واللفظ اليونانى . ووجد الافراط ، وحسن التخلص ، وما يشبههما من الفنون البديعية .

(١) ص ٢٣ و ص ٢٤ (٢) العمدة : ج ١ ص ١٥٠

البديع العربى يتأثر ببلاغات الأمم الطارئة على العربية : أخذ البـديع العربى يظهر فى مظهر جديد، منذ بدء عصر الترجمة، ولا سيما فى عهد المنصور . وليس لنا أن نذهب فى تقدير البرهان المـادى، قولا أو أثرا، إلى حد إهمال البديهيات التى تقضى بها الطبيعة، فى كل عصر وفى كل أمة . فلم يقـل أحد عندنا اليوم إن كتابا من كتب البلاغة الإفرنجية قد ترجم . ومع ذلك فإن كثيرا منا قـد قرأ كثيرا من بلاغتهم و بلاغة من سبقهم، وتأثر بها فى كتاباته ، ولا أشك فى أن هذا كان يحدث بالأمس كما يحدث اليوم، فى كل أمة، وفى كل زمان . فإذا أعوزنا الدليل المـادى على وجود بلاغة يونانية ، و بلاغة هندية ، و بلاغة فارسية، وغيرها فى العصر العباسى الأول، فليس معنى هذا إنكار العادى جدا من نواميس الحياة، وعدم الأخذ بمنطق الواقع . فكيف بنـا وأمامنا إشارات تاريخية (سأتحدث عنها فى باب آت) إن تكن وجيزة فإن وراءها ما وراءها .

إن أعسر ما يمكن تأريخه فى كل عصر، وفى كل أمة، هو أولية الأشـياء . ولذلك كان تأريخ الترجمـة فى أيام المنصور العباسى غامضا . وعندى أن ماهو موجود من قبيل ذلك ليس إلا تأريخ الترجمة الرسمية، غير كامل ولا مستوفى . فإذا كان العصر العباسى الأول، عصرا كتمال النحو، ووضع علم العروض تاما ، وعصر الخوض فى البديع وطلبـه طلبا معتمدا مقصودا ، على قواعد وأصول ؛ و إذا كان هـذا العصر عصر التجدد المـادى، والنفسى، والعقلى، والدينى، و إذا كان هـذا العصر عصر التجديد الأدبى فى نمـط القصيدة، والثورة على التقاليد الشعرية العربية الخالصة ؛ و إذا كان هذا العصر وقبله شـيئا عصر اتصال المعتزلة بالفلسفة اليونانية ، ووجود بعض مبادئها فى مذاهبهم، مع أنه ليس عندنا اليوم دليل مادى على ترجمة شىء منها فى أيامهم ؛ إذا كان هـذا كله ، مضافا اليه الامتزاج الدموى والعقلى بين العرب والفرس واليونان والسريان والهنود، فى تلك المملكة الإسلامية المنبسـطة الأرجاء ، فإنه من العبث إنكار تأثر البديع العـربى إذ ذاك بهـذه البلاغات الغريبة . وجهـد ضائع انتظار النص القائل : إن بشارا قد اقتبس من البـديع اليونانى ، أو الفارسى كيت وكيت ، أو أن أبا نواس قـد قرأ كذا وكذا من كتب أرسـطو ، أو أن استاذه لقنه كذا وكذا من بلاغة الفرس .

أما أى هذه البلاغات الأجنبية قد ترك الأثر الأكبر فى بلاغة شعر العرب، فذلك ما سأتحدث عنه فى فصل يأتى .

* * *

انتصار الجديد : وأما كيف استقبل الناس هذا الشعر الجديد، فقد بينت أنه كان يصور نفوسهم إذ ذاك ومشاعرهم ، فأحبوه وتهافتوا عليه . وليس أدل على هذا من امتلاء كتب الأدب التى تؤرخ هذا العصر بمظاهر الإعجاب بهؤلاء الشعراء .

هـذا عن الناس جميعا ، أما عن العلمـاء ، فإنهم قد تأخروا شيئا فى النظر الى الحـديث نظرة تسوى بينه و بين القديم . ويقول نيكولسن " إن ابن قتيبة ، الذى مات آخر القرن التاسع الميلادى ، كان أول ناقد من النقاد أصحاب الشأن أعلن أن القدماء والمحدثين ، إنما يجب أن يحكم عليهم بمواهبهم ، لا بأعصارهم . فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء " ثم ينقل العبارة وهى معروفة .

أما كراتشكوفسكى ناشر " بديع ابن المعتز " فيرى فى مقدمـة كتبها لهـذا الكتاب أنه فى عصر ابن المعتز، كان العلماء والنقاد قد استقروا على النظر الى القديم والحديث نظرة التسوية . ويستدل على ذلك بمـا يراه فى كتاب البديع من اختيار غالب ما فيه لمحدثين .

ولكن هناك أيضا ما سبق هذا، ويدل على تسوية العلماء بين المحدثين والقدماء .

يقول ابن الأثير فى كتابه المثل السائر[1] بعد أن يذكر أبيات أبى نواس :

ودارِ نَـدامَى عطَّلوها وأدْلجـوا بهـا أثَرٌ منهـم جـديدٌ ودارِسُ

" ومما انتهى إلىّ من أخبار ابن المزرع ، قال سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شـعرا يفضل هذه الأبيات التى لأبى نواس ، ولقد أنشدتها أبا شعيب القلّال فقال : والله يا أبا عثمان ! إن هذا هو الشعر، ولو نقر لطَنٌ . فقلت له : ويحك ما تفارق عمل الجرار " .

وهناك أيضا ما يفيد هـذا و إن تأخر عنه . وذلك فيما ذكره ابن الأثير أيضا ، عن كتاب اسمه " الروضة " للمبرد . يقول عنه : "وهو كتاب جمعه، واختار فيه أشعار شعراء . بدأ فيه بأبى نواس، ثم بمن كان فى زمانه ، وانسحب على ذيله[2] " . وللمبرد فى ذلك عبارة صريحة فى كتابه الكامل يقول : " وقال بعض المحدثين (قال الأخفش : هـو حبيب الطائى) وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محـدث[3] " .

---

(١) ص ٣٢٨ طبع بولاق . (٢) المثل السائر : ص ١٨٩ طبع بولاق . (٣) كتاب الكامل : ص ٧١٤ طبع أوربا .

* * *

أتى بعد هؤلاء طبقة أخرى هى طبقة أبى تمام ومعاصريه . وكانت التقاليد الشعرية الجديدة، والفنون التى خلقها هؤلاء قد أخذت تستقر استقرارا صحيحا . وكانت الفلسفة قد أخذت تتوطد دعائمها، وتقوى أركانها، وطفر العقل الإسلامى طفرة واسعة . فبدأ الشعر يستحيل مع هذه جميعا، إلى لون من ألوان التعبير عنها . فطلبت المعانى والفكرة، وغدا الشعر فنا يصنع صناعة، وانقسم الناس فيه قسمين، تبعا لمؤثرات وجدت إذ ذاك سنتحدث عنها . وهذان القسمان هما : أصحاب اللفظ، وأصحاب المعنى . وهذان النوعان قد وجدا فى الطبقة السابقة من المحدثين، كما وجدا فى الإسلاميين، والجاهليين . ولكنه فى المرة كان نتاج كل ما مضى، وابن ذلك التقدم الرائع الذى وصل إليه العقل الإسلامى، والحس الإسلامى فى ذلك العصر .

(د) بين أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى :

أصحاب المعنى والسرقات الشعرية : كان لمذهب عد السرقات الشعرية، وتحرى المعنى الجديد المبدَع، أثر هائل فى توجيه الشعر العربى، والتأثير فى صياغته، وفى معانيه، وفى فنونه . فقد كان الخلق للمعانى عسرا لكثرة ما قال الشعراء[1]، وكان الشاعر لا يستطيع أن يخلق قصيدة كاملة بديعة، لا يمس فيها معنى لشاعر سبقه . فكان الخلق، بطبيعة الحال، يقف عند البيت والبيتين، ولا تمكن الإطالة فى المعنى الواحد حتى تستغرق القصيدة، وإلا عدّ ذلك إسهابا لا تقبله النفس السامية قبولا رضيا . فاضطر ذلك الشاعرَ إلى تضمين البيت الواحد معنى مخلوقا أو بديعا يودعه البيت، ثم يذهب بعده إلى إعمال الفكر، وكد الذهن، والنظر فى جوانب نفسه ليبحث عن غيره . فاذا عثر عليه أودعه بيتا أو بيتين، فإذا تمّ له ذلك أخذ فى غيره، وهكذا مع شىء من مراعاة الانتقال، التى هى لازمة طبيعية تلزم الفكر الإنسانى . فاذا تمت له القصيدة، واستوت له المعانى التى شاء أن يهديها للناس أخرجها إليهم . فاذا بها قصيدة مجزّأة بادية التفاوت، والاختلاف، غير مستوية، على حد تعبيرهم، لم يقصد فيها الى معنى كلى تحققه، وإنما هى مركبة من معان جزئية، يتقارب أحدها من سابقه، أو يبعد عنه .

ولقد جنى ذلك العدّ للسرقات، وإحصاء المعانى، على الشعر قدر ما أفاد تاريخ تطور المعنى الواحد فى الشعر كله، فانحصرت مواهب الشعراء إذ ذاك، فى التنقيب عن معنى جديد لم يسمع

(١) راجع الوساطة : ص ٢٥ لتعرف ما كان يلقى الشاعر المحدث .

به الناس ، ولو كان تافها . وآلتوت أساليب التعبير إلتواء ، الغاية منه إخفاء المعنى القديم ، أو زيادة شيء فيه ، أو نقله من شيء إلى شيء ، حتى يفيد ذلك أن الشاعر تصرف فيه . وقد صرف هذا الإغراق فى الجزئى الشاعر عن الكليات . فلم تتغير فنون الشعر ، وإن كان الفن الواحد قد تجمع له الكثير من المعانى ، الرائع منها والسفساف . وكان الشاعر يحس ذلك من نفسه ، ويلقى فى ذلك العنت . وكان نتاج هذا العمل المر شعرا كله تكلُّف ، وكله تعمُّل لا تقبله النفس كله ، فإن قبلت بعضه ، فليس ذلك كله عن طريق القلب كما يجب فى الشعر ، وإنما هو عن طريق العقل .

التحسين اللفظى ودواعيه : وأحس الشعراء ذلك فأرادوا لأنفسهم عوضا عن رونق الشعر ومائيته ، فوجدوه فى شيء آخر ، فتحه لهم أسلافهم من قبل ، آنسياقا مع الطبيعة مرة ، والسابقة مرة أخرى ، وتأثرا بما نقل لهم عن بلاغات الأمم التى سبقت إلى الحضارة ، وتهيأ لها فى شعرها ونثرها أساليب منظمة . فقد كان كتّابا الخطابة والشعر لأريسطو معروفين ، وكان الكثيرون فى حواضر الدولة الاسلامية الكبرى يعرفون اليونانية والفارسية والسريانية . وكانت اليونانية لغة الحديث فى بعض البيوت ولغة الثقافة فى ذلك العصر[1] . وكان شعر هوميروس يتناشد فى بعضها ، فيصغى له الناس ويفهمون أنه شعر كبير شعراء اليونان . وقد نجد الجوارى فى قصور الخلفاء يؤدبن أولادهن بآداب الروم ، وقراءة كتبهم ، ويعلمونهم اللغة اليونانية[2] كذلك كانت الفارسية لغة العنصر الغالب على الدولة العباسية حينئذ ، وكانت السريانية اللغة التى نقل عنها العرب كثيرا من كتب اليونان . هذه اللغات كانت ذات أساليب منتظمة ، ودراسات فى البلاغة والخطابة والشعر . ومن هذه ما يختص باللفظ ، والرخص الشعرية ، وتجميل العبارة . فاستعاض الشعراء يومئذ عما فاتهم من مائية الشعر بشيء من موسيقى اللفظ . فطلبوا البديع وغالوا فى طلبه ، وتعلموه وعرفوه ، حتى نسمع أبا تمام يحدث البحترى عن الاستطراد[3] فى الشعر ويضرب له المثل فى شعر من شعره ؛ وهو ضرب من البديع يحدثنا عنه البلاغيون والنقاد المتأخرون بإسهاب . كما نسمع العلماء ، كالخليل بن أحمد والأصمعى ، قبل أن يكتب ابن المعتز كتابه (البديع) ، يتحدثان فى المطابقة من أنواع البديع[4] .

(١) طبقات الأطباء : ج ١ ص ١٨٥ (٢) طبقات الأطباء : ج ١ ص ١٨٥

(٣) العمدة : ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ (٤) العمدة : ج ٢ ص ٧ و ٨ ، وكذلك إعجاز القرآن للباقلانى : ص ٤١ ، وفى ص ٤٣ يتكلم الخليل عن التجنيس .

طابع الشعر الجديد : و بذلك آستحال الشعر، فى يد هذه الطائفة، إلى صناعة من الصناعات يطلب فيها المعنى طلبا مكدودا، فإذا جاء الشاعر إلى دور صياغة المعنى، وضعه فى قالب من الألفاظ مراعى فيه التنسيق والزينة . فيقابل بين هذه اللفظة وتلك ، و بين هذا المعنى وقسيمه ، و يلاحظ الرنين، والجرس، واللين، والجفاء . وقد يعسر هذا كله فيجور المعنى على اللفظ فيخشن و يستوحش، أو يجور اللفظ على المعنى فينقص و يغمض ، و يشتبه الشعر بالفلسفة ، و يبعد الخيال فى البحث عن الصورة، و يخرج الشعر يومئذ من الدائرة التى وضعت له إلى دائرة النثر الفنى ، و يمس الفلسفة مساسا عميقا ، و إن لم يخلُ من فيض نفسى ، أو خطرة تمس القلب وتهز المشاعر ، فيرضى ذلك أذهان بعض الناس ، الذين تقدمت ثقافتهم إلى حد أصبحت تتطلب فيه من كل شىء ما يرضى عقولها وقلوبها جميعا . ولست أريد هنا أن أحدثك عن مبلغ ثقافة الناس فى عصر أبى تمام وقبيله و بعده . و إنما أحيلك على فصل ممتع كتبه « أستاذنا أحمد أمين » فى ذلك، فى كتاب ضحى الإسلام وأكتفى بأن أقول لك ، إن الجاحظ كان يجلس إلى أبى شعيب القلّال (بائع القلل) ، فينشده الجاحظ شعرا لأبى نواس ينقده القلّال بقوله : " إن هذا هو الشعر ولو نُقر لطنّ "[1] وأن أبا العتاهية كان يصنع الجِرار، وأن كثيرا من العلماء كانوا يرتزقون من صنائع أو تجارة . هذا العصر المثقف، العميق ، المتجه شيئا إلى العملية ، والمتفلسف ، كان يستسيغ هذا الشعر المصنوع ، لما باعدت بينه الثقافة الرفيعة و بين فطرته . فقبل شعر أبى تمام و رضيه ، وأحبه . وهؤلاء كانوا يسمون أنفسهم : " أصحاب المعانى " .

أصحاب اللفظ وهم أصحاب العلم بالشعر : وهناك فئة أخرى ، كانت لا تزال سليمة الفطرة، على شىء غير قليل من سلامة الحس الشعرى، يفرقون بين الشعر والنثر، يعرفون لكلّ دائرة حدودا و رسوما لا يعدونها . وهؤلاء كانوا يجعلون الفصل فى الشعر للذوق المكتسب بممارسة الشعر العربى ؛ ويسميهم الآمدى : « أهل العلم بالشعر » ، ويسمى طريقتهم : « طريقة العرب » .

طريقة العرب : يقول الآمدى : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتّى ، وقرب المأخذ، وآختيار الكلام، ووضع الألفاظ فى مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل فى مثله ، وأن تكون الآستعارات والتمثيلات لائقة بما آستعيرت له ، وغير منافرة لمعناه ، فإنّ الكلام

(١) آبن الأثير — المثل السائر : ص ٣٢٨

لا يكتسى البهاء والرونق، إلا إذا كان بهذا الوصف . وتلك طريقة البحترى ... فإن آتفق مع هذا معنى لطيف ، أو حكمة غريبة، أو أدب حسن، فذلك زائد فى بهاء الكلام ، وإن لم يتفق، فقد قام الكلام بنفسه ، وآستغنى عما سواه . قالوا : وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة ، وكانت عبارته مقصرة عنها ، ولسانه غير مدرك لما يعتمد من دقيق المعانى، من فلسفة اليونان، أو حكمة الهند، أو أدب الفرس، ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة، ونسج مضطرب، وإن آتفق فى تضاعيف ذلك شىء من صحيح الوصف وسليمه، قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة، ومعان لطيفة حسنة . فإن شئت دعوناك حكيما ، أو سميناك فيلسوفا، ولكنا لا نسميك شاعرا، ولا ندعوك بليغا ، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم ... وينبغى أن تعلم أن سوء التأليف ، وردىء اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه، حتى يحتاج مستمعه الى تأمل . وهذا مذهب أبى تمام فى معظم شعره .

وحسن التأليف ، وبراعة اللفظ ، يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا ، حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تعهد . وذلك مذهب البحترى . ولذلك قال الناس : " فى شعره ديباجة " . ولم يقولوا فى شعر أبى تمام » .

هذه الطائفة كانت تسمى : " أصحاب اللفظ " .

والفهم الصحيح لما تقوله هذه الطائفة من الناس، يدفع بالإنسان الى الإصاخة له . فهذه الفئة ليست كما يفهم لأول وهلة من آسمها . وهم لم ينكروا المعانى قط ، بل إن المعنى اللطيف ، والحكمة الغريبة عندهم زائدة فى بهاء الكلام . وهم صنّاع شعر ، يراعون صحة التأليف ، وسلامة السبك، وحلاوة اللفظ ، ويطلبون الديباجة ، وهم فى الحق أقرب ما يكون الى أن يكونوا متأثرين بما يقوله أرسطو عن الآستعارة ووجوب قربها ، وعن آستعمال اللفظ فيما يدل عليه . وهم لا يمتنعون تماما عن تقبُّل الحكمة فى الشعر ولكنهم يأبون أن يستحيل الشعر فلسفة . ويقولون : إن للفلسفة آلة أخرى فَلْتُصْطَنَعْ لها آلتها . وهم ينكرون إنكارا عنيفا ذلك التجوُّز فى آستعمال الألفاظ ، آستعمالا يخرجها عن أصول ما وضعت له ، ويأبون التكلُّف والتعمل ، ويقولون : إن للشعر غاية يريد تحقيقها ، فليحققها عن طريقها القويم ولا تَلْتَوِ بنا السبيل . وهم لا يعبئون بعد هذا بالسرقات الشعرية ، لأنهم يقولون : إن المعانى تتوارد عليها الناس جميعا ، وليس هناك ما يمنعنى أن أردد حِسًّا أحسسته لأن غيرى سبقنى إليه . وهم يقولون باستواء الشعر وعدم آختلافه، فيتم لهم بذلك إدراك وجوب توفير الانسجام للقصيدة على أنها وحدة متماسكة .

فهم قوم لا يقيدون النفس فى الشعر بأكثر مما يقيدها به هذا الفن على أصوله، وهم يريدون للشاعر إلّا أن يقول ما يحس، ويذهب فى ذلك فى غير مراعاة لما قال غيره، على شرط أربعة أشياء:

(١) جودة الآلة. (٢) إصابة الغرض المقصود. (٣) صحة التأليف. (٤) الانتهاء إلى نهاية الصنعة من غير نقص منها ولا زيادة عليها[1].

ـ المرزوقى وعمود الشعر:

ولعل المرزوقى[2] أكثر وضوحا حين يتحدث عن هذا. وهم يسمون هذه الطريقة: عمود الشعر؛ فيقول:

"إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة فى الوصف — ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة، كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات — والمقاربة فى التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر.

ولكل منها معيار:

(١) فمعيار المعنى: أن يُعْرَض على العقل الصحيح، والفهم الثاقب؛ فإذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء مستأنسا بقراءته خرج وافيا، وإلا انتقص بمقدار وحشته:

(٢) ومعيار اللفظ: الطبع، والرواية، والاستعمال. فما سلم مما يهجّنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا فى مفرداته وجمله مراعى؛ لأن اللفظة لا تستكره بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها، عادت الجملة هجينة.

(٣) ومعيار الإصابة فى الوصف: الذكاء، وحسن التمييز. فما وجداه مصادقا فى العلوق، ممازجا فى اللصوق، يتعسر الخروج عنه، والتبرؤ منه، فذاك سيما الإصابة فيه ... ...

٤ — ومعيار المقاربة فى التشبيه: الفطنة وحسن التقدير. فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس، وأحسنه ما أُوقِعَ بين شيئين: اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما، ليتبين وجه التشبيه ولا كلفة، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به، وأمكنها له. لأنه حينئذ يدل على نفسه، ويحميه من الغموض والالتباس. وقد قيل: أحسن الشعر ثلاثة:

(١) مثل سائر. (٢) وتشبيه نابه. (٣) واستعارة قريبة.

(١) الموازنة للآمدى. (٢) مقدمة الحماسة: شرح المرزوقى النسخة الفوتوغرافية بمكتبة الجامعة المصرية.

٥ — وعيار آلتحام النظم وآلتئامه، على تخيُّر من لذيذ الوزن : الطبع واللسان . فما لم يتعثر الطبع بأبيِّه وعنوده، ولم يتحبّس اللسان فى فصوله ووصوله، بل آستمرّا فيه، وآستسهلاه بلا ملال ولا كلال، فذلك يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة، تَسالُمًا لأجزائه وتقاربا :

وشعرٍ كبَعْر الكَبْش فرَّق بينه لسانُ دعىٍّ فى القريض دخيلِ

وإنما قلت : على تخيّرٍ من لذيذ الوزن؛ لأن لذيذه يطرب السمع لإيقاعه، ويمازجه بصفائه، كما يطرب الفهم، لصواب تركيبه وآعتدال نظومه ... ...

٦ — وعيار الآستعارة : الذهن، والفطنة . وملاك الأمر تقريب التشبيه فى الأصل، حتى يتناسب المشبه والمشبه به، ثم يكتفى فيه بالآسم المستعار، لأنه المنقول، كما كان له فى الوضع، إلى المستعار له .

٧ — وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى، وشدّة اقتضائهما للقافية : طول الدُّرْبة، ودوام المدارسة . فإذا حكما بحسن آلتباس بعضهما ببعض، لاجفاء فى خلالها، ولا نبوّ، ولا زيادة فيه، ولا قصور، وكان اللفظ مقسوما على رُتَب المعانى، قد جعل الأخص للأخص، والأخس للأخس، فهو البرىء من العيب .

وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود المنتظر، يسوقه المعنى بحقه، واللفظ بقسطه، وإلا كانت قلقة فى مقرّها، مجتلَبة لمستغن عنها .

فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب .

فمن لزمها بحقها، وبنى شعره عليها، فهو عندهم المفلق المعظم، والمحسن المقدم، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سُهْمته منها يكون نصيبه من التقدّم ... ... ".

آنتصار أصحاب المعنى : ثم يقول : " وهذا جُمّاعُ مأخوذ به، ومتبع نهجه حتى الآن" . ولكن هذا إن صدق بالقياس الى النقاد، فليس يصدق بالقياس الى الشعراء فقد كانوا من أصحاب المعانى .

وهؤلاء اللفظيون : "هم القائلون : أحسن الشعر أصدقه . وهم ينكرون الإحالة، والمعوّل عندهم على المصادقة والتحقيق، لا على المبالغة والتمثيل[1]". وعندى أن هؤلاء على صواب، وأن المذهب الآخر

(١) المرزوق

قد قُيّض له أنصار أقوياء ، وجمهور ضخم يتقبله ؛ فقام على رعايته أشباه أبى تمام والمتنبي ، وكان لشعر الأول جدّة وفتنة ، ولشعر الثانى روعة وقوّة . فسار المذهب ، وساد .

ويخيل الىّ أن مذهب اللفظيين — وأولى بنا أن نسميهم الشعراء — لو ترك حرا فانتصر ، لتغير مجرى الشعر العربى ، ولخرج الشعراء من مأزق خوف التهمة بالسرقة ، وسجن خلق المعانى الجزئية ، إلى تأمل عام فى غرض الشعر وغايته ، وإلى نظر فى المشاعر الانسانية ، على أساس وصف الواقع ، وصفاء النفس ، واعتدال المزاج ؛ ولاتجه التجديد والابتكار من المعنى الجزئى إلى المعانى الكلية ، واتسع الأفق للنظر فى ابتكار فنون جديدة فى الشعر .

ولست أنسى هنا أن أشير الى قيد آخر كان يقيد الفريقين معا ، وناء تحت ثقله الشعر العربى ، وحاول التخلص منه أحيانا إلا إنها جميعا كانت إرهاصات تنتهى بالفشل : هو قيد البيت " الذى ينفرد بإفادته فى تراكيبه ، حتى كأنه كلام وحده ، مستقل عما قبله وما بعده ، وإذا أفرد كان تاما " كما يقول ابن خلدون . هذا القيد كان هو الآخر حائلا هاما دون تطور الشعر العربى ، إذا أضيفت إليه وحدة القافية .

كان أبو تمام ، شاعرنا ، من الفئة الثائرة على عمود الشعر : فئة طلاب المعانى . وأرجو ألا ينسى مع هذه التسمية أنهم كانوا يطلبون اللفظ أيضا ، ولكنى بينت كيف كانوا يطلبونه . وكان أبو تمام ذكيا ، يتخطف ذهنه من الأحداث معانى ، وكان ينصب لها نفسه نصبا لا ملال معه .

" حكى عنه بعض أصحابه قال : استأذنت عليه وكان لا يستتر عنى ، فأذن لى . فدخلت عليه فى بيت مصهرج ، قد غسل بالماء ، يتقلب يمينا وشمالا . فقلت : لقد بلغ بك الحر مبلغا شديدا . قال : لا ، ولكن غيره . ومكث كذلك ساعة ، ثم قام كأنما أطلق من عقال . فقال : الآن أردت . ثم استمد وكتب شيئا لا أعرفه ، ثم قال : أتدرى ما كنت فيه منذ الآن ؟ قلت : كلا . قال قول أبى نواس :

* كالدهر فيه شراسة وَلَيانُ *

أردت معناه فشمس علىّ ، حتى أمكن الله منه فصنعت :

شِرستَ بل لِنت بل قانيت ذاك بِذا فأنت لا شك فيك السهل والجبل

ولعمرى لو سكت هذا الحاكى لتم هذا البيت بما كان فى داخل البيت ، لأن الكلفة فيه ظاهرة ، والتعمل بين "[1] .

(١) العمدة : ج ١ ص ١٣٩

" وكان أبو تمام ينصب القافية للبيت ، ليعلق الأعجاز بالصدور . وذلك هو التصدير فى الشعر ، ولا يأتى به كثير إلا شاعر متصنع ، كحبيب ونظرائه[1] " .

وهذا يُرى مبلغ ما كان يكابد أبو تمام فى صناعة الشعر ، وكيف أنه كان يريده إرادة . كما يقول هو فى الحكاية السابقة « أردت » . وكان الشعر فى يده كالسوار فى يد الصائغ ، يكيفه كيف يشاء ، فيرفع هذه اللفظة ليحل محلها أخرى ، ويأتى بالكلمة مضمومة الأول لتشبه اللفظة التى تقابلها فى الشطر الآخر .

يقول التبريزى فى شرحه ديوان أبى تمام فى تفسير البيت :

مزّقتُ ثوب عُكوبِها بِركوبِها فالنار تنبع مِن حصى المَعْزاءِ

العكوب يروى بضم العين وفتحها ... والأشبه بمذهب الطائى ضم العين فى عكوب ، ليكون مشاكلا لضم الراء فى ركوب .

وينقل التبريزى عن أبى العلاء فى شرحه[2] .

متبهم فى غرسِه أنصاره عند النزال كأنهم أنصار

بعد أن يفسر متبهم بالباء المعجمة بواحدة . يقول : " ولو رويت متتهم فى غرسه " . لكان ذلك مشابها لصنعة الطائى ؛ ويقويه قوله فى آخر البيت وأنصاره ، ويعنى بمتتهم : الذى يظهر دين النبى ... " . ويقول أيضا فى شرح البيت :

جاء نذيرُ الحزن فى بطنِهِ بحادثٍ أظهره الظُهر[3]

" أحسن ما يتأول فى هذا البيت على مذهب الطائى ، أن يكون عنى بالظهر ظهر نفسه ... أى أنى لما أتانى الخبر آنحنى ظهرى ، فأظهر ما عندى من الحزن " . ويقول فى شرح :

بكل فتّى ضرب يعرض للقنا محيًّا محلًّى حَلْيُه الطعن والضرب

أشبه بصناعة الطائى أن يكون فتّى منونا ... " . وهكذا من مراعاة اللفظ ما لا حد له .

وينقل الآمدى عن محدّث له عن أبى تمام بلهجة المصادق الراضى :

" وقلتَ : إن أبا تمام معروف المذهب فيما يعرضه من الشعر ، مألوف المسلك لما ينظمه ، نازع فى الإبداع ، إلى كل غاية ، حامل فى الاستعارة كل مشقة ، متوصل إلى الظفر بمطلوبه أين آعتسفه وبماذا عثر ، متغلغل إلى توعير اللفظ ، وتغميض المعنى ، أنى تأتى له وقدر ... ... " .

(١) العمدة : ج ١ ص ١٤٠ (٢) شرح التبريزى : ص ٣٩٥ (٣) المصدر نفسه : ص ٢٩٩

و يقول آبن المعتز فى مقدّمة كتابه البديع :

" قـد قدّمنا فى كتابنا هـذا بعض ما وجدناه فى القرآن، و ... من الكلام الذى سماه المحدَثون البديع، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس، ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هـذا الفن، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم ... ثم أن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم، شغف به حتى غلب عليه، وتفرع فيه، وأكثر منه، فأحسن فى بعض ذلك، وأساء فى بعض. وتلك عقبى الافراط، وثمرة الإسراف" .

وفى الحديث عن الإفراط أو المبالغة يقول آبن رشـيق : " وزعم بعض المتعقبين أن الذى كثر هذا الباب أبو تمـام، وتبعه الناس بعد "[1] .

و يقول الجرجانى عن الآستعارة[2]: " وقد كانت الشعراء تجرى على نهج منها، قريب من الآقتصاد، حتى آسترسل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة، فأخرجه إلى التعدى، وتبعه أكثر المحدثين " .

وهذه الإشارات فى كتب النقد إلى مذهب أبى تمام كثيرة، وتتلخص جميعا فيما يأتى :

(١) طلب المعنى البعيد، واللطيف الجديد المبتدع، وتحرى ذلك تحريا مكدودا متواصلا .

(٢) محاولة إخفاء المعنى المنقول عن الغير بكثير من التغميض ، والتعقيد، والالتواء فى التعبير، وآستخدام الأساليب الجديدة فى ذلك .

(٣) ونشأ عن هـذا كثرة الآستعارات ، والإفراط فى آستعمالها، مع خفاء العلاقة و بُعـدها أحيانا . وأصبح اللفظ فى كثير أشـبه بالمنقول إلى معنى جديد، لا على قواعد الاستعارة القريبة المعروفة . كما آضطره ذلك إلى الإفراط والمبالغة، حتى ليتهمه دعبل بأن ثلث شعره محال .

(٤) كان من وراء هذا كله، مع تكلف إدماج الفكرة فى الشعر، نقص ماء الشعر فى كثير منه، وتبدّى الكلفة ، ولم تكن هناك وسيلة إلى تخفيف هذا، إلا التجميل الصناعى . فتحرى أبو تمـام أنواع البديع، والمحسنات اللفظية من كل وجه، و بكل سبيل . وكان من نتائج آقتران طلب المعنى بطلب اللفظ، على الوجه الذى أسلفته، جور يلحق بأحدهما . فتكون الثمرة الغموض أو الغريب . وآضطر إلى أن يجت ألفاظا من كلمات أعجمية ليؤدى معنى أراده . فيقول :

يستغيثُ البطريقَ جهلا وهل يَطلُبُ الّا مبطـرِقَ البطـــريقِ

(١) ج ٢ عمدة ص ٥١ (٢) الوساطة : ص ٣٢٣ .

ورخص لنفسه أحيانا مخالفة قواعد النحو الشائعة فقال :

تغاير الشعر فيـه إذ سهرتُ له حتى ظننتُ قوافيـه ستقتتل

ولم يقل قوافيه بفتح الياء . ونقل اللفظ عن معناه، فقال :

رقيقُ حواشي الحلم لو أنّ حِلمَهُ بكفّيك ما مارَيْتَ في أنّه بُـرْد

يقول الآمدى ... " فان البُرْد لا يوصف بالرقة، وإنما يوصف بالمتانة والصفاقة. وأكثر ما يكون ألوانا مختلفة " .

الشعر عند أبي تمـام وأصحابه

فالشعر عند أبي تمام قد آستحال إلى مادة لينة سهلة، يصورها تصوير الصانع كيف يشاء صناعة يتحرى فيها الغرض، يريد أن يحققه . ولكن هذا التحقيق قد تعترضه قيود اللغة فيحطمها، ورسوم البلاغة فيخرج عنها، وذوق الناس فلا يعبأ به، فهو ثائر وهو مجدد، وهو في هذه الثورة لا يعبأ بشيء. يحطم القيود، ويعدو الحواجز، ويأبى على الشعر إلا أن يكون فكرة قبل أن يكون شعورا . لا يريده غذاء الفطرة، وإنما يريده أولا غذاء العقل، وهو يتلمس فيه أيضا أن يرضي الشعور، ولكنما ذلك يأتي تاليا .

موازنة : ولا يفوتني هناك أن أنبه إلى أن الفرق بين أبي تمـام مع أنصاره أصحاب المعاني، وبين أصحاب اللفظ، إنمـا كان في هذه الثورة على المواضعات، والرسوم المقررة . فكلاهما يقبلان المعـاني الجـديدة ، ولكنما ينفرد اللفظيون بطلب الأعتدال ، والأستجابة للطبع ، وعدم الخروج بالشعر إلى ميدان الكتابة . وقد بينت ما كان يمكن أن يترتب على هذا من تطور في فنون الشعر .

والغريب أنهما يتبادلان لونين من الحرية ، ولونين من الأستعباد ؛ فأصحاب المعاني ثائرون على كل ما يقيـد الفكر، ولكنهم واقعون تحت نير ما يقيد الطبع . وأصحاب الألفاظ ثائرون على كل ما يقيد الطبع، ولكنهم واقعون تحت نير ما يقيد الفكر .

* * *

وسـنرى فيما بعـد أن هؤلاء اللفظيين ، وكلهم من العلماء ، كانوا تلاميـذ أرسطو ، التابعين لهديه وارشاده . من هؤلاء آبن الأعرابي ، ودعبل (وكان عالمـا إلى شعره، كتب كتابا في الشعر والشعراء ، ينقل عنه آبن رشيق كثيرا) والآمدى ، والجرجاني ، والمرزوقي، وآبن رشيق . وأظنني قد أطلعتك على طرف من آرائهـم يكفي للدلالة على ما كانوا يرون . وجميعهـم عدا دعبل كانوا علماء، لم يقولوا الشعر، إلا النادر منه .

* * *

أما أنصار مذهب المعانى : فنهم أبو تمام ، والمتنبى ، شاعران . و إبراهيم بن على الحصرى القيروانى الأنصارى . يقول عنه ياقوت "كان ... يحب المجانسة ، والمطابقة ، و يرغب فى الاستعارة تشبها بأبى تمام فى أشعاره ، وتتبعا لآثاره" . ومن العلماء رجل ذو مزاج شعرى ، هو ضياء الدين ابن الأثير صاحب المثل السائر . وأولئك هم شعراء ، مارسوا الشعر وجربوه . والمثل العامى يقول : ليس من يده فى النار كمن يده فى الماء . وللشعر مآزق يضطر إليها الشعر اضطرارا ، لا يحسها من خرج عنه . وهؤلاء أيضا تلاميذ أرسطو . ولكنهم غلوا فيما نصح بالاعتدال فيه ، وزالوا عما رسمه من السنن .

* * *

و بعد ، فقد قيض لمذهب المعانى عبقريتان ، قامتا به أول أمره ، وذادتا عنه بقوى جبارة غير عادية ، فاستمد من نفسيهما القو يتين سندا . ذان هما أبو تمام والمتنبى . وظل أصحاب القانون وأنصاره يصلتونه على رؤوس الخارجين ، يشهرون بهم فى الأسواق ، و يهتفون بهم فى الآفاق ، والشعراء يحملون مشاعلهم ، لا يجيب أحدهم الا بتلك الكلمة الفخورة :

"وللفصحاء المدلين فى أشعارهم ما لم يسمع من غيرهم"[1]

والناس تتغنى بهذا وتتناقل ذاك ، وتيار الحياة جارٍ إلى غير وقفة ، وفى غير كلال .

٥ — أثر أرسطو

قلت : إن الطائفتين من تلاميذ أرسطو . وتركتك عند هذه القضية بغير دليل أو تفصيل . والحق أنى ممن يتهيبون التهجم على التاريخ ، وقد كنت آخر من يلج هذا الباب لولا فيض اقتناع ، وفضل حس بما أقول . إن آثار السلف مقدّسة ، ولكن إحقاق الحق أقدس . ولا شك فى أن قبول قوم ما عند آخرين دليل على حياتهم ، ومرونتهم ، وصلاحيتهم البقاء والكفاح . ولست أشك فى أن بث فكرة التعاون بين الناس خير وأنفع للانسانية والتقدم ، من خلق الهوّات بين الأمم وأبعاد الشقة بين الجماعات . فاذا آمنت معى بهذا ، فانى لا أتهجم بك على قدس من الأقداس ، ولكنى إنما أفتح لك باب معبد ، لآلهٍ دينه الحب والوئام والتعاون ، وأفض عنك قيودا قوامها الأنانية ، والخلاف ، والفتنة .

(١) العبارة للتنبى من الوساطة ص ٣٤٣

(ا) الترجمة قبل حنين : يقول القفطى[١] : "إن آبن المقفع هو أوّل من آعتنى فى الملة الاسلامية بترجمة الكتب المنطقية ، لأبى جعفر المنصور . وهو فارسى النسب ، ألفاظه حكيمة، ومقاصده من الخلل سليمة . ترجم كتب أرسطو طاليس المنطقية الثلاثة وهى : كتاب قاطيغوريا س (المقولات)، وكتاب بارى أرمنياس (العبارة أو القضايا التصديقية) ، وكتاب أنا لوطيقا (القياس وصور انتاجه). ترجم ذلك بعبارة سهلة ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكتاب كليله ودمنة ؛ وله تآليف حسنة ، منها رسالته فى الأدب والسياسة ، ورسالته المعروفة باليتيمة : فى طاعة السلطان". فهو يجعل اليتيمة من تأليفه و إن كان الباقلانى يزعم أن آبن المقفع نسخ الجزء الخاص منها بالحكم ، من كتاب بزرجمهر فى الحكمة[٢] .

ولا شك أن هذه الجملة المنصبة على ألفاظ آبن المقفع فى الترجمة ، وآستحسان عبارته فيها ، وما يقع دائما من أن المترجم الثانى يستفيد من ترجمة الأوّل ، وعلى الأخص إذا كان حسن العبارة سهلها ، لا شك فى أن هذا يدفع إلى الظن بأن كثيرا من ألفاظ آبن المقفع قد نقل فى ترجمة إسحق آبن حنين ؛ لاسيما الألفاظ ذات الصيغ الجديدة للدلولات الطارئة على اللغة ، من المعانى المنطقية . أشباه «الماصدق» و «الماهية» وغيرها . هذا الخلق للألفاظ عملية جديدة تثير فى الذهن ذكرى لنظير لها فى كتاب خطابة أرسطو ؛ يسميها سانت هيلير «الكلمات المركبة»[٣] .

ويقول سانتلانا فى مذكراته[٤] :

"حكى يحيى بن عَدِى أيضا قال : آلتمست من إبراهيم بن عبد الله ، الناقد النصرانى ، نص سوفسطيقا ، ونص الخطابة ، ونص الشعر ، بنقل حنين ، بخمسين دينارا فلم يبعها ، وأحرقوها وقت وفاته" .

فكأن الخطابة والشعر كانا مترجمين قبل موت حنين . وقد مات حنين سنة ٢٦٠ ، على قول وسنة ٢٦٤[٥] على آخر . أى قبل أن يملى آبن المعتز كتابه البديع سنه ٢٧٤ كما يقول هو[٦] .

(ب) أثر أرسطو فى البيان والتبيين : وإن فى إغضاء الجاحظ مع علمه ، عن الاشارة إلى أية عبارة لأرسطو غير عبارته : " الانسان حى ناطق " وذلك فى كتابه البيان والتبيين ، مع أن

(١) طبقات الحكماء : ص ١٤٨ (٢) إعجاز القرآن : ص ١٨ . (٣) خطابة أرسطو — ترجمة سانت هيلير (ك ٣ — ف ٣) . (٤) ص ٢٥٥ النسخة الفوتوغرافية بمكتبة الجامعة . (٥) طبقات بن أبى أصيبعة : ج ١ ص ١٩٠ (٦) البديع : ص ٢٥٨

هناك ترجمة ابن المقفع لثلاثة من كتبه ، ما يشبه سكوت ابن المعتز عن ذكر أرسطو فى كتابه ، مع أن الخطابة والشعر كانا مترجمين قبل أن يملى ابن المعتز كتابه .

وغير قريب أن يقنع الانسان نفسه أن الجاحظ لم يطلع على كتب أرسطو الثلاثة التى ترجمها ابن المقفع . كما أنه من المحتمل جدا أن يكون قد سمع شيئا من خطابة أرسطو وشعره، مترجمين، أو فى لغتهما، أو لغة أخرى. ويلمح " أثر الغارة الهيلنية على البيان العربى المحافظ "[1]، الذى تستخرج رسومه وحدوده من كتاب " البيان والتبيين " . وكلام الجاحظ فى البيان والتبيين عن البلاغة "كلام فلسفى محض، لو قورن بمعانى أرسطو، وخاصة فى كتاب الخطابة ، لرد جله اليها "[2] .

وهناك عبارة غامضة فى الفهرست : أن كتاب الخطابة لأرسطو " يصاب بنقل قديم " . ويبدو أن عبارة " نقل قديم "[3] يطلقها ابن النديم على النقل أيام البرامكة . ويكون الكتاب قد نقل إلى العربية فى القرن الثانى الهجرى .

كل هذه تثير فى النفس أن الكتابين كانا معروفين للجاحظ ، ولابن المعتز . فلماذا سكتا عن الإشارة اليهما ؟ ولماذا أمسك الجاحظ ، عن نقل أى نص من كتب أرسطو ، غير هذا النص السابق ؟ وهناك أشياء أخرى تدل على اتصال المحدثين بهذين الكتابين .

(ج) أثر أرسطو فى البديع لابن المعتز : يقول أرسطو فى كتابه الشعر :"وإذا أصطنع الإنسان الأستعارات ، والصيغ المنحوته ، والصور الأخرى المغيَّرة ، دون مراعاة للاعتدال ، وقع فى نفس ما بيناه سابقا من أضحاك القارئ من نفسه . ولكن لتقدير فعل تلك الصيغ الشعرية حين يستخدمها الإنسان فى أعتدال، يكفى أن يدخلها فى بيت واحد . وأما عن العبارات الغريبة، والأستعارات والصيغ الأخرى ، فسترى صحة ملاحظتنا حين تستبدل بها الكلمات الدالة على الحقيقة"[4].

ويقول ابن المعتز فى مقدمة كتابه عن البديع .

" قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه فى القرآن، واللغة، وأحاديث رسول الله ... وكلام الصحابة ، والأعراب ، وغيرهم ، وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذى سماه المحدَثون : البديع ، ليُعْلَمَ أن بشارا ، ومسلما ، وأبا نواس ، ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا الى

(١) مقدمة نقد النثر لقدامة . كتبها طه حسين . (٢) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها : ص ٢٢ محاضرة مطبوعة للأستاذ أمين الخولى . (٣) فهرست ابن النديم . طبع أوروبا ص ٢٤٤ (٤) اعتمدت فى النقل على ترجمتى سانت هيلير الفرنسية ، وبوتشر الانكليزية . النص من الشعر : الفصل ٢٢ الفقرة ٨ فى الفرنسية ، و ٦ فى الانكليزية .

هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم ، حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه . ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم ، شغف به حتى غلب عليه ، وتفرغ فيه ، وأكثر منه ... وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت لأحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع . وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل " .

ألا ترى معى أن عبارة أرسطو كأنما ترجمت ترجمة صحيحة ، وأن الحكمين المستفادين من النصين واحد ؟ وإنما اختلفنا فى التطبيق على الأدبين العربى واليونانى .

تلك العبارة بعد ما سبق من إشارات تاريخية ، تكفى للدلالة على أن كتابى أرسطو ، كانا معروفين فى أيام أبى تمام ، وأن ابن المعتز ، والجاحظ من قبله ، حين كتبا كتابيهما لا حظا ما قال أرسطو . ولكن نقل بيان من لغة إلى لغة أخرى ، تخالفها فى الطبيعة والتكوين ، لم يكن من السهولة بحيث يطبق كله ، فكانت محاولات بدائية لم تكتمل فى هذين الكتابين ، وقاربت التمام فى كتب النقد التى تلتهما . وأقول : كتب النقد ولا أقول كتب البلاغة .

* * *

كما أن نهج ابن المعتز فى تأليف كتابه يقارب نهج أرسطو فى تأليف كتابيه . فابن المعتز يبدأ بالكلام على الفن من الفنون البديعية ، فيعرفه إن أتيح له ذلك ، ثم يأتى بالأمثلة الكثيرة له ، ثم يذكر أمثلة لما يعاب منه . وأرسطو يفعل ذلك إلا أن الفرق بينهما فرق مابين المبتدئ وبين البالغ غايته . فأرسطو يعلل ، وابن المعتز لا يعلل . وأرسطو شامل النظرة ، دقيق المقصد . أما ابن المعتز فقريب النظر متعثر فى جديده أحيانا .

ويظهر أن ما كان متداولا فى تلك الأيام هو قطعة من كتاب أرسطو ، وليس الكتاب كله ، أو أن معظم الكتاب لم يكن مفهوما لديهم إذ ذاك ، وما فهم منه كان الجزء الخاص باللفظ وليس بالعبارة .

وإنما رجعت إلى كتاب ابن المعتز أتحدث عنه هذا الحديث مع تأخره عن زمن أبى تمام ، لأنه هو أول أثر مكتوب فى البديع واقع تحت أيدينا ؛ ولأنه إذا تبين بدلالة الآثار المادية أن علماء اللغة كانوا يستفيدون فى عصور من عصورها بكتاب أرسطو ويسكتون عن ذكره ، فان ذلك يجوز أن يكون سابقوهم قد فعلوا ذلك . ويقوى هذا اذا اقترن بما نقلت من النصوص التى تشير إلى ترجمة الكتاب .

يضاف إلى هذا أن اللغة اليونانية كانت يتحدث بها فى البيوت، وكانت لغة من لغات الثقافة فى هذا العصر، كما أشرت سابقا، وأن المسلمين كانوا على اتصال بأرسطو من أيام ابن المقفع، فليس ما يمنعهم من النظر فى جميع ما كتب . وأنا لنجد الخليل بن أحمد ، واضع علم العروض ، وأستاذ سيبويه ، وأستاذ حنين بن إسحق أكبر النَّقَلة إلى العربية ، يتحدث عن التجنيس من أنواع البديع ويضرب المثل له[1] كما يتحدث عن المطابقة بمعناها البلاغى، ويتحدث كذلك عنه الأصمعى . وأبو تمام يحدث البحترى عن الاستطراد فى شعره . وقد أشرت إلى ذلك قبلا .

(د) أثر أرسطو فى أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى : كل ذلك إن لم يخلق اليقين فهو يقوى الشبهة . فإذا رجعت إلى طائفتى اللفظ والمعنى، وجدت الأولى تقول بإبعاد الألفاظ الغريبة، وبوجوب أن تكون العلاقة قريبة بين المستعار والمستعار له . هذان سببان من التى يجعلها أرسطو من أسباب برودة الأسلوب[2]. كذلك الغموض يمقتونه، وقد مقته قبلهم أرسطو[3] . فهؤلاء تلاميذ أرسطو فى كتاب الخطابة .

فاذا انتقلت إلى أصحاب المعنى وجدتهم يلجأون الى ما يطلق عليه أرسطو "الرخص الشعرية" فى كتاب "الشعر" .

(١) فللشاعر أن يصوغ كلمات جديدة، بأن يخلقها خلقا .

(٢) وله أن يبدل حرفا متحركا فيها بآخر أطول منه .

(٣) وله أن يرخم الكلمة ويخترلها، وأن يتصرف فى الصور الصرفية[4] .

كل أولئك نراه عند أنصار المعنى . وإنا لنسمع المتنبى — ولا عبرة بتأخره فهو صورة من صور العصر ، وتلميذ أبى تمام ، وسترى أنه يريد أن يرجع هذه الرخص إلى الجاهلية — يقول : "وللفصحاء المدلين فى أشعارهم ما لم يسمع من غيرهم . كقول امرئ القيس : دِيمة هطلاء ، وذى الرمة : أدمانة . يعنى أدماء، ... الخ" وأن أحد خصومه ليصرح به : "قد خلط هذا الرجل فى احتجاجه، وجمع بين أمور مختلفه، ودلنا على بُعده عن تحصيل المعانى، وذهابه عن مقاييس النحو، وأجرى كلامه إلى غاية توجب قلب اللغة ، ونقض مبانى العربية ، لأنه جعل الشعراء بزعمه أمراء الكلام، وأباح لهم التصرف على غير ضرورة. وهذه القضية إن سبقت على اطّراد قياسها، زال نظام

(١) بديع ابن المعتز : ص ٢٥ (٢) خطابة : ك ٣ ف ٣ (٣) الخطابة : الموضع عينه .
(٤) الشعر : ص ٨١ ف ٢١ وما بعدها .

الأعراب ، وجاز للشاعر أن يقول ما شاء ، وأن يتناول ما أراد عن قرب ؛ فيثقل كل مخفف ، ويخفف كل مثقل ، ويحذف ، ويزيد ، ويغير الجموع ، ويتحكم فى التصريف ، ويتعدى ذلك إلى حركات الإعراب ، ويتجاوزه إلى ترتيب الحروف . فإذا كان هذا ممتنعا محظورا ، ومتعذرا محجورا ، فلابد من حد يقف عنده الشاعر ، وينتهى إليه الفرق بين النظم والنثر"[1] .

وأصحاب المعنى فى ذلك هم تلاميذ أرسطو حين يقول : " وعلى ذلك فليس لأحد حق ، أن ينتقد الشاعر لاصطناعه هذه الصيغ ، أو أن يضحك منه كما فعل إقليدس الشيخ ، حين أعلن أنه من السهل أن يصبح الإنسان شاعرا اذا أبيح له تطويل المقاطع حين يشاء"[2] .

* * *

ولا تأخذ على استشهادى بأقوال المتنبي وخصمه ، وهما فى زمن يتأخر بما يزيد عن قرن عن عصر أبى تمام . فإنك تستطيع أن ترى بوضوح فى الكلام على أصحاب المعانى وأصحاب الألفاظ ، واضطراب هذه المعانى بينهم ، وكلامهم عن عمود الشعر ، مما أوضحته قبلا ، ما يجعلك تقتنع معى بأن هذا كان كلاما يتردد فى ذلك العصر كله ، وأن المتنبي إنما كان تلميذ أبى تمام وعصره فى هذا المعنى . ولا أشك فى أن تناول كل جزء من هذه الأجزاء على انفراد لا يقنع الإنسان ، ولا يرضى العقل ؛ ولكنها جميعا إذا تظاهرت واتصلت بعضها ببعض ، أنتجت ما يمكن أن يدعوه الناظر المتأمل مؤامرة من أبناء هذا العصر مقصودة ، على كتمان آثار البلاغة اليونانية فى البلاغة العربية . وربما نشأ ذلك عن المعنى الدينى الذى يحوط اللغة العربية منذ نزل بها القرآن . لذلك تحرجوا فى التصريح بالنقل عن البلاغة اليونانية ، التى هى لغة أدب وثنى ، ولم يتحرجوا فى التصريح بالنقل عن الفلسفة اليونانية والطب اليونانى .

(هـ) أثر أرسطو فى أبى تمام : بعد هذا كله يمكنى أن أستظهر فى شىء غير قليل من الارتياح النفسى ، أن أبا تمام حين كان يطلب البديع ، وأنه حين كان يريده إرادة ، إنما كان يطلبه تبعا لأصول وقواعد موضوعة . وأنه كان فى ذلك متأثرا ببيونانية أتته عن طريق الثقافة فى عصره ، وعن طريق العلم المنتشر بين أهل جيله . وأبو تمام كان عالما ، وكان مطلعا . يعترف له بذلك خصومه قبل أصدقائه ، ويكفينى أن أحيلك على ما يقولونه عن حفظه ، وعلى المحاورة بين صاحب أبى تمام وصاحب البحترى فى الموازنة . فلا غرابة أن يطلع على ما كان يجرى فى عصره .

(١) الوساطة للجرجانى : ص ٣٤٣ طبع : صبيح . (٢) كتاب الشعر : ك ٢٢ الفقرة السابعة .

أبو تمام إذن تلميذ أرسطو حين يجعل اللفظ وحين يطلب البديع .

وأرجو أن لا ينسى مع هذا، أن أبا تمام كان يطلب المعانى قبل الألفاظ ، وأن الزينة اللفظية عنده لم تكن إلا وسيلة يستعيض بجمال موسيقاها عما قد يفوته من قوة الطبع وسهولة الفكرة . ولا يختلط علينا الأمر ، كما اختلط على ابن رشيق حين عارض ابن الرومى فى قوله عن أبى تمام : " إن الطائى كان يطلب المعنى ولا يبالى باللفظ ، حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها "[1].

" قال بعض من نظر بين أبى تمام وأبى الطيب : إنما حبيب كالقاضى العدل ، يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه ، بعد طول النظر والبحث عن البيّنة ؛ أو كالفقيه الورع ، يتحرى فى كلامه ، ويتحرج خوفا على دينه . وأبو الطيب كالملك الجبار ، يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، يهجم على ما يريده ، لا يبالى ما لقى ، ولا حيث وقع"[2] .

وهذا الحكم يبين كيف كان أبو تمام يتحرى اللفظ بعد تحرى المعنى . وهو لا يبغض قول ابن الرومى ، فإن المعنى كثيرا ما كان يضطره إلى إغراب فى اللفظ ، تثقل به النفس . وذلك واضح فى ديوانه . وكثيرا ما نقل اللفظ عن معناه المعروف به . فنقل البُرد من الثوب الصفيق إلى الثوب الرقيق . وتبعه البحترى فى ذلك ونقل الوشاح ، عن معناه المعروف إلى الحزام . فى قوله :

مِن الهِيف لو أن الخلاخيل صُوِّرتْ لها وشُحًا جالتْ عليها الخلاخِلُ[3]

وأشباه ذلك مما اعتبره النقاد الأقدمون خطأ من أبى تمام ؛ ولعمرى إنه ترخيص أبى تمام لنفسه مالا يرخص لغيره ، تحت حكم المعنى القاهر . وما كان على علمه الذى يصفونه لنا ، بالذى يخطئ فى فهم معنى الوشاح ، والبرد ، والوشائع .

---

(١) العمدة : ج ١ ص ٨٦ . (طبع هندية بالقاهرة) . (٢) العمدة : ج ٢ ص ٨٧ .

(٣) راجع اعتراض الآمدى على ذلك فى الموازنة .